الخروج عن القاعدة النحوية بين الأصل التاريخي والتطور الدلالي

د. عبدالله علي الهتاري *

سأتناول في هذا البحث ثلاث مسائل تدخل ضمن ما يسمى بالخروج عن القاعدة النحوية، وظاهرة الخروج عن القاعدة النحوية ظاهرة جديرة بالدراسة والبحث والتأمل الدقيق القائم على المنهجية العلمية، للوصول من ذلك إلى نتيجة مفادها : أن هذا الخروج جاء لملحظ دلالي وليس مرده إلى أصل تاريخي فحسب ، كما يحلو لأصحاب المنهج التاريخي في الدرس اللغوي ،فقد انصب اهتمام الكثير منهم على التركيز على التركيب والشكل الظاهري لبنية التركيب النحوي، دون الغوص في النظر والتأمل في الأبعاد الدلالية من وراء ذلك الخروج عن القاعدة ، وهذه الخروجات كثيرة ومتعددة ومتناثرة في الدرس النحوي، يصعب تناولها جمعيا في هذه العجالة الموجزة، وإنما ينصب اهتمام الباحث على ثلاث مسائل كانت محل نظر واهتمام جل الدارسين للنحو العربي قديما وحديثا، وسيتم عرضها بإيجاز وإبداء نظر متواضع من قبل الباحث تجاه هذه المسائل الثلاث التي هي :

1 - المطابقة في الإسناد للغة "أكلوني البراغيث".
2 - الحديث عن المثنى بصيغة الجمع .
3 - دخول علامة التأنيث على الوصف الخاص بالمؤنث .

* قسم اللغة العربية - كلية الآداب والألسن - جامعة ذمار .

أولاً: الخروج في لغة "أكلوني البراغيث".

يقول ابن مالك - رحمه الله -:(1)

وجرد الفعل إذا ما أسندا لاثنين أو جمع كفاز الشهدا .

ويقول السيوطي (2) :"إذا أسند الفعل إلى الفاعل الظاهر، فالمشهور تجريده من علامة التثنية والجمع، نحو : قام الزيدان، وقام الزيدون، وقامت الهندات ، ومن العرب من يلحقه الألف والواو والنون على أنها حروف دوال كتاء التأنيث لا ضمائر، وهذه اللغة يسميها النحويون لغة : "أكلوني البراغيث" ومنه قوله : وقد أسلماه مبعد وحميم".

واستقصى باحث(3) معاصر الشواهد على هذه اللغة فوجدها تربو على ستين شاهدا، عشرة منها وردت في الذكر الحكيم، ومثلها في الحديث الشريف ، وبقيتها في شعر العرب ونثرهم .

ويذكر محمد جبر(4) : "أن المعروف في اللغات السامية أخوات العربية مطابقة الفعل لفاعله المجموع ، ففي السريانية الجملة الثالثة والعشرون من إنجيل لوقا تطابق بينهما:

etmliw yawmata detesmesteh

وترجمتها الحرفية : كملوا أيام خدمته . فلحقت واو الجمع بالفعل المتقدم على فاعله المجموع . وكذلك الجملة الأولى من الإصحاح الخامس من إنجيل متى، والجملة العاشرة من الإصحاح الخامس من سفر أمثال سليمان - والجملة التاسعة عشرة من الإصحاح التاسع عشر من سفر أيوب.

وفي العبرية أمثلة كثيرة لذلك منها الجملة الأولى من الإصحاح الثاني من سفر التكوين :

Wayyekullu haŠŠamayim weh`ares

وترجمتها:" فاكتملوا السموات والأرض .وكذلك :التكوين 1/9،20، والتكوين 4،2/6 ، والتكوين15/12 والتكوين 27/25".

ويرجع جبر(5) هذا الأسلوب إلى أنه يشير إلى أصل تاريخي قديم للساميات "إذ كان هذا الأسلوب تعبيراً طبيعياً لدى الناطقين باللغات السامية، ثم أتيح للعربية

مرحلة من التطور تخلت فيها عن مطابقة الفعل لفاعله غير المفرد، فالعربية تميل إلى الإيجاز وحذف ما لا يضر حذفه".

وهو ما يراه بعض الباحثين [6] أيضا ممن تناولوا هذه الظاهرة. ومما سبق ذكره من عرض موجز للظاهرة عند القدماء والمحدثين لم نجد من تناولها من جانب الدلالة والمعنى .فقد أنصب اهتمام اللغويين على جانب التركيب فحسب، وهذه نظرة قصر أصحابها أنفسهم على جانب التركيب دون تناول الدلالة والمعنى.

والذي يهمنا أن التطور في التركيب لابد أن يصحبه تطور في الدلالة جنبا إلى جنب، ولا بد أن نعنى بالدلالة والمعنى عند تفسيرنا للشواهد الخارجة عن الأصل اللغوي المشهور المعروف الذي استقرت عليه القاعدة، وأن هذا الخروج عن القاعدة كان للحظ دلالي لا أن نكتفي بإرجاعه إلى لغات أو الزعم بأنه يشير إلى أصل تاريخي قديم فحسب .

ولِمَ لا يكون الملحظ الدلالي لاستعمال المطابقة الجمعية في هذه اللغة"أكلوني البراغيث" بأنه تكثيف للحدث بصورة جمعية؟! أي: حصول الحدث والفعل بصورة جماعية قوية مكثفة تبين عظم أكل البراغيث له ، بمعنى أنه أضفى على الفعل قوة في معناه مستلهمة من صيغة الجمع في" أكلوني"*.

ويمكن وفق ذلك فهم قوله تعالى في محكم التنزيل :" وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا " (الأنبياء3) .

إذ أوضح المولى – عز وجل – قبح وشناعة فعلهم من الإسرار والتآمر على رسوله الشريف، وأنهم قد بالغوا في الإسرار والتآمر على النبي – صلى الله عليه وسلم - وأن هذا الفعل قد صدر منهم صدورا قويا جماعيا مكثفا إمعانا في الكره والحقد على النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم -.

كما تقول الأم وقد بلغ بها الكرب مبلغه من أذى وفداحة طيش أبنائها " ذبحوني الأولاد ".

فهي تريد تكثيف حدوث الفعل وأنه صدر بقوة جماعية، ومثله قولهم:"ظلموني الناس". وغير ذلك.

وإذا استقام الأمر في هذا المعنى الدلالي والملحظ البياني، جاز لنا أن نعد هذا الأسلوب جائزاً وارداً عندما يريد صاحبه تكثيف حدوث الفعل بصدوره بصورة جماعية، ولا نقف في ذلك عند التعليل بالأصل التاريخي فحسب، لاعتقادنا أنه لا يمكن أن يحصل تطور في التركيب دون أن يصحبه تطور في الدلالة، وأن كل خروج عن قاعدة التركيب هو خروج إلى معنى جديد .

ثانيا : الحديث عن المثنى بصيغة الجمع.

من ذلك قوله تعالى :" وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ " (سورة ص. آية 21 -22).

فقد ورد التعبير بالجمع في قوله :"تسوروا"، "دخلوا"، "منهم"،"قالوا"، في حين أنهما في الحقيقة شخصان "خصمان بغى بعضنا ...."، فهما اثنان وذكرهما القرآن بصيغة الجمع.

وقد ذهب بعض علماء اللغة قديما إلى تفسير هذا الخروج بأن العرب تعد ما زاد عن الواحد جمعا، يقول الفراء[7] :"وربما ذهبت العرب بالاثنين إلى الجمع، كما يذهب بالواحد إلى الجمع، ألا ترى أنك تخاطب الرجل فتقول : ما أحسنتم ولا أجملتم، وأنت تريده بعينه، ويقول الرجل للفتيا يفتي بها : نحن نقول: كذا وكذا هو يريد نفسه".

ويعلل بعض الباحثين المعاصرين [8]ذلك الخروج بأنه يشير إلى بقايا مرحلة تاريخية قديمة في الدرس اللغوي، كان التعبير فيها عن غير الواحد يذكر بصيغة الجمع، وأن التثنية مرحلة لاحقة في التطور اللغوي، يقول محمد جبر[9]:" التثنية في اللغة ظاهرة ناتجة من تدبر عقلي، ولا يتيسر وجودها إلا بعد زمن غير قصير من نضج اللغة، ففي المراحل الأولى من حياة اللغة يحتاج الإنسان إلى التعبير عن الواحد وعن غير الواحد، وهذا ما نجده في معظم اللغات، فصيغتا المفرد والجمع هما القائمتان في جميع اللغات، والتثنية غير موجودة في أكثرها، فالتفكير في التعبير عن الاثنين لاحق للتعبير عن الجماعة" .

هكذا فسر بعض اللغويين هذا الخروج إذ انصب اهتمامهم على جانب التركيب مغفلين جانب الدلالة والمعنى، وواضع اللغة حكيم، يقصد من وراء التعبير

الذي يورده معنى لطيفا يعمد إليه عمدا ويقصده حتما، وإلا كانت هذه التراكيب والتقاليب ضربا من التنوع الذي لا معنى له، لا سيما أنها وردت في بديع التنزيل من الذكر الحكيم، والذي يظهر لي - والله اعلم – أن هذا الخروج مقصود لمعنى دلالي، نلمحه من سياق النص القرآني، وهو أن داود عليه السلام ملك له حرسه وحشمه وهو في قصره، وعادة الملوك أنه لا يمكن الدخول عليهم إلا بإذن سابق، وما حصل بالنسبة لداود الملك خلاف المألوف المعروف لأمثاله، إذا دخل عليه شخصان بصورة مريبة من التسلق لسور المحراب، ودخلا عليه في أخص مكان له وهو المحراب الذي ينفرد فيه لعبادة الخالق جل جلاله.

ففزع داود من دخولهما عليه بهذه الصورة، مما أشعره ذلك كأن انقلابا عسكريا عليه قد حصل، وأن هذين الشخصين قد أرسلا من قبل المنقلبين عليه، للتحاور معه وإخلاء المكان، كما هو المتعارف عليه بين الملوك عند الانقلاب عليهم،فدخولهما بهذه الكيفية يوحي بأن مكروها قد حصل وأن وراء هذين الشخصين أشخاص كثر قد أحاطوا به واسروا جنده وانقلبوا عليه ؛ لذا كشف المولى – عز وجل – هذا الفعل بقوله:" إذ تسوروا المحراب "، " إذ دخلوا على داوود" فاستعمل حرف الجر "على"لا "إلى" ليشير إلى علو هذا الدخول وقوته، فالتسور والدخول بهذه الكيفية يحتاج إلى قوة جمعية كبيرة،لذا نزلها المولى – عز وجل – في التعبير منزلة الجماعة الكثيرين لا شخصين عاديين، فكشف الفعل والحدث وقواه بإسناده إلى الجمع، وهو ما استشعره داود إذ تلبس به الخوف والفزع عند رؤيته هذين الشخصين " إذ دخلوا على داود ففزع منهم "، وقد شاهد الخصمان ذلك واضحا على ملامحه فقالا:" لا تخف" ، ثم بينا له أنهما شخصان فقط، وليس وراءهما جماعة وليسا مرسلين من جماعة، فقالا:"خصمان" ثم ذكرا قضيتهما" بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق.....".

فالقرآن بأسلوبه المعجز يذكر خلجات النفس وخطراتها، بتصرفه ومغايرته للأساليب، ليصل من وراء ذلك إلى معنى لطيف يريده، فهو يصور بالتراكيب والكلمات ما يدور في خلجات النفس من خطرات، وهذه سمة البيان القرآني المعجز الذي تبوأ القمة في الإعجاز.

ثالثا : دخول علامة التأنيث على الوصف الخاص بالمؤنث.

القاعدة في الوصف الخاص بالمؤنث أن لا تلحقه علامة التأنيث، فلا يقال: امرأة حائضة، ولا امرأة مطلقة وهكذا، يقول السيوطي[10]:"والغالب ألا تلحق الوصف الخاص بالمؤنث كحائض وطالق وطامث ومرضع، لعدم الحاجة إليها بأمن اللبس".

ويعلل أحد الباحثين ذلك بقوله[11]:" ولعل هذا راجع إلى مرحلة قديمة من عمر اللغة لم تكن فيها علامات التأنيث قد استخدمت بعد، فقد كان المؤنث لغويا يعامل به المذكر".

وقد وهم هذا الباحث إذ العكس هو الصحيح، فالأصل المفترض في التفكير اللغوي القديم أن يجنح العقل اللغوي البدائي إلى التمييز بين المذكر والمؤنث بالعلامة، ثم تأتي مرحلة متطورة من الدرس اللغوي، تحذف هذه العلامة من بعض الاستعمالات، لوجود أمن اللبس وإعمال الفكر في أن هذه الصفات مما اختصت به الأنثى عن الذكر فتحذف العلامة، بدليل ما نجده من استعمال الفصحى كلمات (طالق – حامل – طامث – مرضع.....)، وما نسمعه في العامية من قولهم : طالقة، حاملة، فالاستعمال العامي يشير إلى مرحلة أولية قديمة في التفكير اللغوي لا إلى مرحلة متطورة في التفكير.

وما حصل من خروج عن الفصيح الأغلب لهذه القاعدة وذلك من إدخال علامة التأنيث على الوصف الخاص بالمؤنث، يمكننا تفسيره دلاليا لا أن نقف في تفسيره عند حدود الأصل التاريخي، وليست علة الاطراد هي السبب في ذلك كما ذهب إليه الباحث السابق بقوله[12]:"ولعل الرغبة في أن تطرد القاعدة هي التي جعلت الاستعمال اللغوي يميل إلى إدخال علامة التأنيث على كثير من الألفاظ المؤنثة تأنيثا سماعيا، أي المؤنثة بدون علامة التأنيث".

فقد وهم هذا الباحث مرة ثانية إذ جعل الاطراد هو العلة المسببة لدخول علامة التأنيث على الوصف الخاص بالمؤنث، فإذا كان هذا التعليل مقبولا في تفسير استعمال الناس ذلك، فكيف يمكن قبوله في تفسير ما ورد في محكم التنزيل، وذلك في قوله تعالى:" يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ" .(الحج2)

والذي يظهر لي – والله أعلم – أن الخروج عن القاعدة في هذا السياق القرآني جاء لملمح دلالي في الذكر الحكيم،وذلك أن المولى – عز وجل – أراد أن يصور حال المرضع وهي تلقم ثديها وليدها وقد ذهلت عنه وشغلت ودهشت لهول الموقف في الحساب يوم القيامة، لا أنه يذكر وصفا لمرضع، أي من كان حالها الإرضاع فحسب، وإنما يصور المرضع وهي تباشر الإرضاع بثديها في تلك اللحظة، فهذا الخروج في التركيب ولد خروجا في المعنى الدلالي، قصد منه إبراز الوصف وتوضيح الصورة بوضوح وجلاء، ترهيبا وتخويفا لهول الموقف في الجزاء.

الهوامش :

(1) شـــرح ابـــن عقيل ، بهاء الدين عبد الله بن عقيل ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ،2003م ، ج 1 ، ص 396.

(2) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، جلال الدين السيوطي ، (تحقيق أحمد شمس الدين) ، دار الكتب العلمية .بيروت ، 1998م ، ج 1، ص513 .

(3) انظـــر : الإســـناد فـــي لغة " أكلوني البراغيث".د. عبد الحميد الأقطش ، أبحاث اليرموك ، م 13/ع 2 ، 1995 ، ص 390 .

(4) الضمائر في اللغة العربية د. محمد جبر ، دار المعارف .مصر ، 1980م ، ص 175 ،

(5) المرجع السابق نفسه.

(6) انظر الإسناد في لغة "أكلوني البراغيث" د.الاقطش، أبحاث اليرموك م13/ع2 ص 404 .

(7) معاني القرآن الكريم ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء ، عالم الكتب، بيروت،ط2 ، 1980م ، ج 2 ، ص 319 .

(8) هذا المعنى أشار إليه أستاذنا وشيخنا الفاضل .أ.د.سمير ستيتية في ندوة علم اللغة التاريخي المقارن .

(9) انظر الضمائر في اللغة العربية.د. محمد عبدالله جبر ص 32.

(10) الهمع ج 3 ، ص 291 .

(11) ظاهـــرة التأنـــيث في العربية واللغات السامية، د. إسماعيل عمايرة عمان ، مركز الكتاب العلمي 1986 ، ص 34 .

(12) المصدر السابق ، ص 41.